

الشخصيات الغيريّة عند غالب هلسا: رواية السؤال نموذجاً

فياض هبيي

غالب هلسا في سطور¹

- وُلد في قرية ماعين جنوب عمّان بتاريخ 1938/12/18. تلقى تعليمه في مدرسة ماعين الابتدائية، ثمّ في مدرسة المطران في عمّان.
- التحق بالحزب الشيوعي الأردني عام 1951، وسجن مرات عديدة نظراً لنشاطه السياسي في الأردن وبعدها في العراق (عام 1954). وتمّ ترحيله إلى الأردن.
- توجّه إلى القاهرة عام 1954 ليدرس الصحافة وينهها عام 1958. أقام في القاهرة حتى عام 1976، وعمل كصحفي في وكالتي الصين الجديدة للأنباء، ووكالة الأنباء الألمانية.
- توجّه إلى العراق بعد ترحيله من مصر إثر نشاطه السياسي، حيث نشط كاتباً في صحافة الحزب الشيوعي العراقي ومجلة الأرقام. انتقل بعدها إلى بيروت ليعيش فيها تجربة المقاومة والحصار والحرب.
- استقرّ في دمشق عام 1983 حتى وفاته فيها بتاريخ 1989/12/18.

إصداراته

في الرواية:

- 1968 وديع والقديسة ميلادة وآخرون.
- 1976 زنوج وبدو وفلاحين.
- 1970 الضحك.
- 1975 الخماسين.
- 1979 السؤال.
- 1982 ثلاثة وجوه لبغداد.
- 1987 سلطنة.

¹ هلسا، غالب. الأعمال الروائية الكاملة. عمّان: دار أزمّة، 2003.

- 1988 الروائيون

في النقد الأدبي:

- المومس الفاضلة ومشكلة حرية المرأة: قراءات في أعمال يوسف الصايغ، يوسف إدريس وجبرا إبراهيم جبرا (1980)
- فصول في النقد (1984)
- قراءة نقدية لأعمال عاموس عوز وترميزاته (1995)
- أدباء علموني.. أدباء عرفتهم، مجموعة مقالات (1996)

في الفكر:

- العالم مادّ وحركة: دراسات في الفلسفة العربية الإسلامية (1980)
- الجهل في معركة الحضارة (1982)
- أزمة ثورة أم أزمة قيادة، مقالات (1990)

في الترجمة:

- جماليات المكان، لغاستون باشلار (1980)
- فوكنر، لمايكل ملجيت (1976)
- برنارد شو، ل. أ. م. جيس (1977)
- رواية "الحارس في حقل الشوفان" ل. ج. د. سالنجر (1978)

مقدمة

كانت الشخصية الروائية بصفة عامة، وما زالت، محطّ اهتمام المبدعين والنقاد والقراء. كما احتلّت الشخصية الغيريّة/ المغتربة¹ مركزية هامة في فترتي الحداثة وما بعدها بصفة خاصة. الروائي غالب هلسا كان واحدا من أولئك المبدعين العرب الذين أولوا هذه المسألة

¹ تُستخدم في هذه الورقة المصطلحات: الشخصية المغتربة، المهمشة والمسحوقة كمترادفات للمصطلح الأساس "الشخصية الغيريّة".

أهمية خاصة. احتلّت الشخصيات الغريبة عنده مساحة كبيرة من إنتاجه الأدبي بصفة عامة، وإن كنت أرى أنّ هلسا اهتمّ بشكل خاص بالشخصية الغريبة الأنثوية تحديداً ومنحها القدرة لتكون شخصية مؤثرة على خلاف دورها وموقعها المهمّشين في الواقع، وهو الأمر الذي يستأهل البحث.

تسعى هذه الدراسة إلى رصد الشخصيات الغريبة بصفة عامة، والغريبة الأنثوية منها بصفة خاصة من خلال عدة مستويات، عند الروائي غالب هلسا من خلال روايته السؤال¹. كما تسعى هذه الدراسة لتجيب عن الأسئلة التالية:

1. ما هي أهمّ المستويات التي تُبرز الشخصيات الغريبة؟
2. هل كانت الشخصيات الغريبة وليدة الواقع الذي نشأت فيه؟
3. لماذا حرص الكاتب على إبراز الشخصية الغريبة الأنثوية تحديداً؟

1. حول مفهوم الشخصية الغريبة²

لا شكّ بأن الأدب الحدائثي، نتيجة لتحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية جذرية، تحوّل من صورة الشخصية الأدبية "التقليدية" لصالح الشخصية الغريبة Outsider Character. ونقصد بالشخصية الغريبة الشخصية الخارجة عن الإجماع العام للمجتمع كشخصية: المسحوق/ الفقير، السكير، الزانية، القاتل، المعاق والمثقف الإيدولوجي (في بعض الحالات) وغيرها من الشخصيات. هي شخصية فاقدة لكلّ قدرة، تعيش حالة من الإحباط واليأس نتيجة لأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية سلبت منها كلّ قدرة على التكيف والتأقلم

¹ الأعمال الروائية الكاملة لغالب هلسا الصادرة عن دار أزمنة، عمان، 2003. كلّ الاقتباسات المعتمدة في هذه الورقة مأخوذة من هذه الطبعة.

² حول مفهوم الاغتراب، انظر: سعيد، حسن. الاغتراب الدراما المصرية المعاصرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986. وانظر كذلك: شتا، علي السيد. الاغتراب في التنظيمات الاجتماعية. الإسكندرية: مكتبة الإشعاع الفنية، 1997. كما تحدث الباحث Alienation الاغتراب مفهوم عن Robert Blauner في كتابه: Alienation and Freedom. Chicago: The University of Chicago Press, 1967.

والصمود. وهكذا غدت كلّ الأفعال وردود الأفعال الصادرة عن الشخصيات غيريّة بنفس الدرجة. فعلاقتها مع الواقع ليست محكمة بمنطق العلاقات الاجتماعية المعهودة عادة، ومواقفها السياسية تخالف التيار السائد في المجتمع وتحاول التشبث والتأكيد على مواقفها مهما كلفها الأمر (الاعتقال، التعذيب ...) كما يغدو نهج حياتها مغايرا تماما مما يثير أكثر من علامة استفهام واحدة. حالتها النفسية تميل، عادة، إلى الإحباط واليأس واللا جدوى. ولا تخرج علاقاتها الجنسية من دائرة الغيريّة هذه، فتأتي هي الأخرى غريبة مشوّهة، سواء كان ذلك في جغرافية العلاقة الجنسية، شكلها، طبيعتها وأطرافها. كما تتبنى هذه الشخصيات، نتيجة لظروفها الغيريّة، "معجما" لغويا خاصا يعرّي اللغة أكثر مما يقدّسها. وهكذا يصبح لزاما على الناقد والقارئ أن يقرأ هذه الظاهرة قراءة متأنية وعميقة.

لكن تجدر الإشارة إلى أنّ الشخصيات الغيريّة تحتلّ دور المركزية والصدارة عندما يتمّ تناولها تناولا أدبيا، وبذلك يكون الأدب مرآة جلية لهذه الشخصيات مما قد يسهل على القارئ مسألة التعرف عليها والوقوف عند أهمّ مميزاتا وخصائصها. لا شكّ بأنّ النصّ الأدبي، في هذه الحالة، يقوم بعملية "ردّ اعتبار" لهذه الشخصيات من خلال رصدها وإعطائها دور المركزية أولا. ودعمها "لتثار" من الظروف التي أوصلتها إلى هذا المستوى من التهميش ثانيا، من خلال منحها الفرصة للفرض والاحتجاج والنقد وحتى السخرية ولو معنويا أو على مستوى النصّ الأدبي على أقلّ تقدير. تنعكس الشخصيات الغيريّة في النصّ الأدبي من خلال مستويات عديدة منها: الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي، الديني، الجنسي، اللغوي، الجغرافي، النفسي والجسدي (انظر: هيبي، 2006: 17-27). وستمثلّ المستويات: الاجتماعي والسياسي والجنسي محور البحث في هذه الدراسة. الشخصيات الغيرية هي شخصيات مقهورة مسحوقة تضافرت كلّ الظروف الممكنة لترسيخ غيريّتها واغترابها. ومن خلال دراستي لأدب غالب هلسا لاحظت اهتمام الكاتب والتفاتة إلى هذا المستوى من الشخصيات والأنثوية منها بصفة خاصة، وهو الأمر الذي يستأهل البحث والدراسة على نحو ما سنرى في الصفحات اللاحقة من هذه الدراسة.

2. مستويات اغتراب الشخصيات وغيريتها في أدب غالب هلسا

2.1. المستوى الاجتماعي

يقوم المستوى الاجتماعي من مستويات اغتراب الشخصية الأدبية على رصد اغتراب الشخصية من خلال علاقاتها الاجتماعية مع المجتمع/ المرجعي الذي تعيش فيه. هذه العلاقات التي تعيش حالة من التفكك والقطيعة، الأمر الذي يؤدي إلى عزلة الشخصية اجتماعيا بكافة مستوياتها وأشكالها (See: Blauner, 1967: 15-24). تغدو هذه العلاقات شبكة من التواصل الغيري والمشوّه، تنعدم كل الاعتبارات والقيم التي من الممكن أن تحدّ من غيرية هذه العلاقات. كالعلاقات المحكومة بقربة الدم والزواج. وهكذا تنشأ الشخصية الأدبية مغتربة غيرية تعيش حالة من القطيعة مع محيطها، الأمر الذي قد يفسر جزءا من تصرفاتها الغيرية بعد ذلك.

رواية السؤال لغالب هلسا والتي تتناول مرحلة ما بعد ثورة 23 يوليو في مصر، وتسلب الضوء على كثير من علامات الاستفهام التي أفرزتها هذه الثورة في الشارع المصري. يمكن القول إنّ كلّ الشخصيات الناشطة في هذه الرواية هي شخصيات غيرية مغتربة، وإن اختلفت مستويات اغترابها وغيريتها. سنتعرض في هذا الفصل لكافة الشخصيات الناشطة في هذه الرواية مبيّنين غيريتها، على أن نسلط الضوء أكثر في المستويين التاليين (السياسي والجنسي) على شخصية: مصطفى، سعاد وتفيدة لمركزيتها أولا، ولنتمكن ثانيا من رصد غيرية الشخصية الأنثوية تحديدا لنؤكد زعمنا السابق في هذه المسألة.

يعيش مصطفى في هذه الرواية حالة من الغيرية والقطيعة مع الواقع والمرجعي. فهو الشيوعي الذي اعتقل نتيجة لنشاطه السياسي وهو المثقف المحبط الذي يحاول التنظير لواقعه المشوّه أكثر مما يحاول عمليا لتغييره أو محاولة تغييره على أقلّ تقدير. علاقاته الاجتماعية مع المرجعي والمحيط كرسّت من غيريته، فهو ممنوع من ممارسة عمله ولكنه يذهب ليستلم "الماهية" نهاية كل شهر: " .. وعندما بدا أنها طالعت النهر بما فيه الكفاية

سألته عما يعمل، ثم استدركت قبل أن يجيب إنها تعني العمل الذي يعيش منه. قال لها- وقد كان هذا الموضوع يضره- إنه موظف. قالت إنها سمعت من سعاد أنه لا يذهب إلى العمل. فرأى أنه مضطر أن يشرح لها الوضع. فقال أنه أعيد للعمل ولكنهم يمنعونه من ممارسة عمله، فلذا يذهب آخر الشهر ويستلم الماهية فقط" (ص: 677). يبيّن هذا الاقتباس، بما لا يقبل الشك، حالة الغيرية التي يعيشها مصطفى. فهو يتعرض لرفض على مستوى المجتمع (من قبل المؤسسة الرسمية على أقل تقدير) الأمر الذي يخرج، ولو مرحليا، من إجماعه العام. تعزّز المفارقة¹ الصارخة في النص السابق من غيرية هذه الشخصية، فاستلام الموظف "للماهية" مشروط، بشكل بديهي، بالعمل. لكن مصطفى يستلم أجرته كأبي موظف آخر دون أن يعمل الأمر الذي يخالف المتوقع والمنطق البسيط. لم يكن نفوذ مصطفى سببا في إفراز هذه المفارقة، إنّما العكس هو الصحيح. النص السابق يؤكد أنه أعيد للعمل بعد غياب (الاعتقال) ولكنه منع من ممارسة العمل لنفس السبب الذي أدى إلى تغييره عن العمل. هذا حالة غيرية فاضحة للواقع، فاضحة لثورة علقت عليها الكثير من الآمال في التحرر. وهكذا أصيب مصطفى بتغييره هذا الواقع، فغدا مواطننا ملفوظا يُمنع من مزاوله أبسط حقوقه وهو العمل. إذا كان الاقتباس السابق قد بيّن لنا غيرية الشخصية في علاقاتها مع المرجعي والواقع المتمثل بهذه الحالة بالمؤسسة الرسمية، فلا بدّ أن نستعرض جانبا آخر لا يقل أهمية في هذا المستوى الاجتماعي وهو علاقات الشخصية الاجتماعية. تتميز الشخصيات الغيرية عادة بمحدودية العلاقات الاجتماعية، فالواقع المشوّه والضبابي يفرض حالة من القطيعة (النسبية) بين الشخصية ومحيطها مما يجعل علاقاتها الاجتماعية مع أفرادها محدودة وغيرية في الوقت نفسه. انحصرت علاقات مصطفى الاجتماعية في مستويين اثنين: رفاق دربه في "النضال" المتمثلين

¹ حول مفهوم المفارقة في النص الأدبي بأشكالها ومستوياتها المختلفة، انظر: شبانة، ناصر. المفارقة في الشعر العربي الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002. وانظر كذلك دراسة Soren

بشخصيتي وليد ونوال في الأساس، وعلاقاته العاطفية الجنسية التي تقاسمتها كل من سعاد وتفيدة. مما لا شكَّ فيها أن غيرةً شخصية مصطفى تنعكس في الأساس في المستوى الثاني من علاقاته الاجتماعية، باعتبار أنَّ سعاد وتفيدة شخصيتين عاشتا على هامش المجتمع، سواء كان ذلك من الناحية الجغرافية والاجتماعية، وهو الأمر الذي سيُفصل لاحقاً في هذا المستوى عند الحديث عن هاتين الشخصيتين بشكل خاص. لم تكن غيرة مصطفى في هذه الجزئية في كونه أقام علاقة جنسية- عاطفية غير "شرعية" بقدر ما تجلت هذه الغيرة بطبيعة الطرف الثاني لهذه العلاقات. فهو المثقف المحسوب على الطبقة الوسطى من المجتمع، ففي الحالة الطبيعية لا بدَّ له أن يلتفت في علاقاته هذه إلى "سيدات" هذه الطبقة. لكنه بدلاً من ذلك لجأ إلى الطبقات "الدونية" الخارجة أصلاً عن الإجماع العام للمجتمع. زد على ذلك الإحساس بالراحة والقبول الذي هيمن على مصطفى في علاقاته هذه بداية واستعداده لاتخاذ قرارات لا تقلَّ غيرةً عن طبيعة هذه العلاقة في نهاية المطاف. لم يستطع مصطفى تحمّل غياب سعاد عنه رغم علمه بعلاقاتها الجنسية المشوهة سابقاً، ولم يتردّد في المغامرة والغوص في أحياء مصر القديمة بحثاً عنها حيث تصبح مهمة العثور على البيت مهمة شبه مستحيلة نظراً للازدحام والاحتفاظ: "التفتت المرأة خلفها وأوسعت له الطريق فدخل. قالت سعاد بلهفة: مش معقول، مصطفى، مش معقول. دا إنت نورت! دا إنت شرفت ونورت...!" (ص: 558) وفي موضع آخر: "وعندما أمسك يدها وسألها عن سبب عدم مجيئها، كان عاشقاً حقيقياً ليس لسعاد فقط..." (ص: 560). يبيّن هذان النصان لهفة مصطفى وقلقه على علاقته بأنثى أقرب إلى الزانية منها إلى المرأة الطبيعية، وإنَّ دلَّ ذلك على شيءٍ إنّما يدلُّ على حالة القطيعة التي يعيشها مصطفى مع محيطه الطبيعي (أحياء القاهرة الجديدة حيث المجتمع البرجوازي الصغير كما يسميه هو) يشعر مصطفى أن المعنى الحقيقي للحياة والوجه الحقيقي للمجتمع يكمن في هذه الأحياء القديمة التي لا تربطها بالعالم صلة تذكر وفي ذلك اتهام واضح للواقع الذي ضيّق الخناق وما زال على أفرادها فبحثوا عن مكان يعيش جوهر الحياة لا شكلها من وجهة نظره على أقلِّ تقدير.

تؤكد حالة العشق التي يعيشها مصطفى مع سعاد علاقات الشخصية الغيرية من ناحية، وضبابية الواقع من ناحية أخرى. إنّه عشق لا يخلو من نية الاحتجاج، يحتجّ من خلاله مصطفى على واقع ردّد الشعارات وأمطر الناس بالوعود والأمال ولكنه في الواقع لم ينجح في تمكين الأفراد من التواصل مع محيطهم على النحو المطلوب فهربوا (نفسيا على الأقل) إلى علاقات في محيط آخر حيث يجدون ضالّتهم. لم يكن تنازل مصطفى عن علاقته الجنسية- العاطفية مع سعاد لصالح تفيدة إلاّ دليلا آخر على غيريّة الشخصية في مستواها الاجتماعي، خاصة وأن تفيدة هي خالة سعاد! هذا التحوّل يؤكد أن العلاقة التي تُبنى في أساسها على غيريّة لا وبدّ وأن تؤدي إلى تبعات أكثر غيريّة! فهي هو مصطفى يتنازل عن "عشقه" لسعاد لصالح خالتها المتربطة أصلا بعقد زواج مع رجل آخر! هذا التشابك المشوّه في العلاقات الاجتماعية يؤكد أن الواقع لا يقلّ تشوّها وغيريّة. إذا كان مصطفى قد حوّل رباطه الجنسي الذي يربطه بسعاد إلى علاقة غرامية، فقد ذهب أبعد من ذلك بكثير في علاقته مع تفيدة. مصطفى يعترف صراحة أنّ تفيدة أعطت معنى حقيقيا لوجوده ولحياته: "اكتشف مصطفى حقيقة غير متوقعة، وتلك أنّه رغم انشغاله الدائم بتفيدة فإنّه قد أنجز خلال هذه الأسابيع الأخيرة من الأعمال ما لم ينجزه طوال حياته. وكان إنجازهم الأساسي في المجموعتين المكونتين من الأدباء الشبان والسياسيين حيث استطاع أن يشارك في دراسات، نشرت في حينها، كان لها تأثير أبعد وأكبر مما يتصوّر. كان قبل معرفته بتفيدة يتأرجح بين الحنين إلى ماضٍ يجمل في طبائعه الانتماء كملجأ من الضياع وبين أحلام يقظة تجعل ذلك الماضي مستقبلا متعدّد الاحتمالات... ولكن تفيدة جاءت فأصبحت اللحظة الحاضرة وجودا حافلا. لقد كان مجرد حضور تفيدة ومحاولته اكتشافها والصراع مع الفكرة المسبقة التي رسمها عنها تؤدي بذاتها إلى الانفتاح على الحاضر والاستغراق فيه" (ص: 795). هذا النصّ يؤكد، بما لا يقبل الشكّ، غيريّة الشخصية في علاقاتها الاجتماعية من عدة وجوه: أولا، مجيء تفيدة إليه تصرف غيريّ بكلّ المقاييس، اختارته عشيقا تقاسمه البيت والحياة وفي الواقع ترتبط مع رجل آخر بعقد قران شرعي! وهذا ما يؤكد غيريّة الواقع الذي بات يسمح لوجود مثل هذه العلاقات المشوّهة، لم يعد عقد القران هو الرابط

المقدّس الذي يجمع بين اثنين! الزوجة قد تجمع بين زوج وعشيق في الوقت ذاته. هذه العلاقات المضطربة هي انعكاس للاضطراب والضبابية المسيطرين في الواقع. الوجه الغيريّ الثاني الذي يفرضه هذا النصّ يتصل بالتحوّل الهائل حتى "المتطرف" الذي أصاب حياة مصطفى بعد دخول تفيده. كان يعيش حالة من اليأس والإحباط الذي يفرضه الواقع المشوّه والمفارق، فقد خيّبت الثورة آمال الكثيرين من المثقفين والسياسيين وابتعدت في رأيهم عن "مسارها" ومبادئها المفترضة قبل اندلاعها. لكن تأتي تفيده لتضخ فيه من جديد حيوية المناضل وإبداع السياسي لينجز في وقت قصير ما لم يتوقع إنجازها طوال حياته. والسؤال الذي يفرض نفسه وبقوة في هذه الحالة: كيف استطاعت هذه الشخصية أن تُحدث هذا التغيير الهائل رغم ثقافتها المحدودة ومستواها الاجتماعي "البسيط"؟ المرأة القادرة على أحداث هذا التغيير في شخصية مصطفى، في الحالة الطبيعية، هي الشخصية الواعية لما يدور حولها (على المستوى السياسي- الاجتماعي) وليست المرأة الخارجة من أعماق الأحياء الشعبية المهمّشة التي لا تفقه شيئاً في عالم السياسة الذي يعيشه مصطفى. ولكن نفاجاً أنّ هذه الشخصية المهمّشة الغيرية هي ذاتها لا غيرها من استطاعت أن تُحدث هذا التغيير الهائل الذي يقربه مصطفى نفسه. هذه المعادلة الغيرية إلى أبعد الحدود تتصل بشكل مباشر مع دلالة النصّ العامة وفيها فضح للواقع بصورة جلية. النصّ بذلك يؤكّد أن التغيير الحقيقي يجب أن يخرج من أعماق الأحياء الشعبية، من مصر الحقيقية لا مصر التي تعيش حالة "الانهار" الثوري بأحيائها الراقية. وأن تكون المرأة شريكاً فعلياً وفعالاً فيه. فالثورة وليدة المجتمع المصري المكافح الشعبي البسيط، و فقط منه وفيه يكمن التغيير المنشود. وهذا ما تؤكّده المقارنة التي حرص مصطفى على إجرائها بين الأحياء الراقية والأحياء الشعبية وميوله الواضح لصالح الطرف الثاني (ص: 581، 756). ولا شكّ بأن هذه المسألة تتوافق كلياً مع مواقف الكاتب غالب هلسا من المرأة وضرورة تحرير المرأة كجزء لا يقلّ أهمية عن عملية تحرير المجتمع بصفة عامة (انظر: الحمارنة، 44: 2011-45).

لم تكن الحالة الاجتماعية التي عاشتها تفيده (وسعاد كذلك) أفضل حالا من الحالة الاجتماعية لباقي الشخصيات الناشطة في النصّ بصفة عامة ولمصطفى بصفة خاصة. كانت تفيده ترتبط بعلاقات اجتماعية غريبة مع أفراد بيتها أولا. عاشت في بيت جمعها مع زوجها وابنة أختها (سعاد) وجودهم في بيت واحد من شأنه أن يعزّز العلاقة بينهما. لكن نلاحظ أنّ تفيده كانت تعيش عالما خاصا بها وهي المحكومة بعقد زواج مع رجل وتعيش معها في بيت واحد، فكانت تغيب عن البيت لأيام متواصلة دون محاسب أو رقيب ودون أن تقيم هي نفسها وزنا لزوجها على الأقلّ أو تقديم ما يبرّر غيابها: " جاء الزوج في ساعات الصباح الأولى . سأل عن زوجته فقالت له سعاد إنّها ذهبت لتكون جانب إحدى قريباتها المريضة. فأخذ يبكي لأنّه في كلّ مرة يعتقد أنّها ذهبت ولن تعود ثانية- تقول سعاد وهي تضحك إنّّه يقول أحيانا: " أنا لم أكن استحقها، لقد صبرت عليّ طويلا" وينخرط في البكاء. قال مصطفى:

- " هو، ما حاولش يعرف عنوان الست العيانة ويروح لها هناك؟"

قالت سعاد:

- " ما هو عارف طبعا إنه ما فيش ست عيانة ولا حاجة" (ص: 634)

يتضح من خلال النصّ السابق أنّ الشخصيات بصفة عامة لا تعيش واقعا غريبا فحسب إنّما تغرق في الغيرة لدرجة يصعب تخيلها أحيانا. يأخذ الزوج في البكاء بدلا من الغضب (على أقلّ تقدير) على غياب زوجته خوفا من أن تتركه، وهو ذاته يعترف صراحة أن هذا الخوف ينتابه في كلّ مرة تغيب فيها تفيده عن البيت. خوف الزوج دليل صارخ على غيرة العلاقة التي تجمعها مع زوجته، أضف إلى ذلك أنّ العملية (الغياب) متكررة من جانب تفيده. هذا المناخ الاجتماعي المشوّه الذي تعيشه تفيده لم يمنعها بطبيعة الحال من المغامرة أكثر وخارج حدود الأحياء الشعبية لتصل في نهاية المطاف لمصطفى. هذا النصّ يرسّخ الغيرة المتجدّرة في الواقع الذي يسمح بفوضويته وعبثيته لهذا المستوى من العلاقات أن تكون حاضرة وبهذه القوّة. الزوج لم يعد قادرا على ضبط العلاقة مع زوجته

بصورة طبيعية لائقة، بل يتمادى في تشويبه ليبيكي غيابها خوفاً ألا تعود له. الناس تعيش حالة من القلق وانعدام الأمن، الزوج لا يرى في تفيده زوجة بقدر ما يرى فيها مصدر أمن وأمان. والضحك الذي يصيب سعاد من حالة زوج خالتها تؤكد الغريبة دون شك، فلا مجالاً عندها لأن تؤول هذه الحالة بمفاهيم الحرام والعيب والخروج على العادات والأعراف لأنّ الواقع هو الذي فرض حالة عامة من الانفلات وغياب القيم والمعايير فجاء تصرفها (ضحكها) كانعكاس لهذا الواقع. شهدت العلاقة بين تفيده وابنة أختها سعاد غريبة من نوع آخر، فالحديث بينهما عن العلاقات المشبوهة لسعاد ولتفيده خارج إطار الزواج (مع القهوجي و حامد) يتمّ بمنتهى الصراحة والمباشرة وكأنه أمر طبيعي لا غرابة فيه! زد على ذلك أن تفيده وابنة أختها سعاد وقعتا في حبّ رجل واحد (حامد) (ص: 643) فهذا ما يؤكّد أنّ الواقع مشوّه لا يفرض إلا مكان مشوّها.

يصوّر النصّ في أجزائه الأولى محورين من الشخصيات التي تؤكّد غريبة الواقع وتشويبه، المحور الأوّل هو شخصية السيدة من الحيّ الراقي وشخصيتي: عبد العليم وصديقتة منى. لم تكن هناك علاقة تجمع بين محوري هذه الشخصيات، لكن جمع بينهما خيط واحد وهو السفاح. في هذه الأجزاء من الرواية يؤكّد النصّ على واقع مشوّه بكلّ المقاييس، فهناك حالة من الذعر والتخبط والضبابية. يثير السفاح حالة من الرعب ومن الاهتمام الذي يفوق الهيمّ أو الواجب الوطني. تعكس ممارسة السفاح حالة مشوّهة من الدرجة الأولى: "ومكان الجريمة هو شقة في عمارة جاردن ستي. وقد وجدت امرأة في حوالي الأربعين من عمرها مقتولة، وإن القاتل قد وجه طعنات قاتلة في أماكن حساسة في جسدها، وطعنة في أسفل بطنها، ثمّ إنّ القاتل أجلسها في وضع عجز مصطفى عن تصويره. وقد وضعها فوق كنبه وفرد ساقيها وهي شبه عارية" (ص: 505) يؤكّد هذا الاقتباس أنّ هناك حالة من الضياع والرعب تسيطران على المجتمع، فالسفاح يمارس "عمله" إيماناً منه بضرورة تطهير المجتمع من الرذيلة والعفن (مقالات السفاح، ص: 577-578) فكأنّه بذلك ينظر ويحكم وينفذ في الوقت ذاته! يخلق حالة من القانون الشخصي ينفذه وفقاً

لمبادئه الغربية وأساليبه الأكثر غرابة. ممارسة السفاح أفرزها واقع لا يقل تشويهاً، واقع يفرض حالة من اللأمان. الذي بات يحكم على تصرفات الأفراد في المجتمع هو سفاح لا المؤسسة الحاكمة، وهذا انعكاس لحالة التردّي التي يعيشها المجتمع. ما يزيد السفاح حضوراً في هذا الواقع المشوّه هي الممارسة المتواصلة بطبيعة الحال والمنهجية المتشابهة التي "يتبناها" السفاح في تنفيذ لجرائمه، فداثما كان يهتم بالأماكن الحساسة. زادت جريمة قتل عبدالعليم، وهو عالم لامع في مركز الطاقة الذرية، بصورة بشعة من حضور السفاح كواقع لا بدّ منه وأكّدت العلاقات المشوّهة التي تحكم المجتمع: "وأشارت الصحف إلى أن المجرم قد عمد إلى بتر عضو حساس في جسد عبدالعليم ووضعه في مكان حساس. ورغم إبهام العبارة فقد فهم القراء حقيقة المسألة. وذكرت الصحف أن عبدالعليم كان عارياً تماماً، قد أجلس على فوتيل كبيرة ورفعت ساقاه على طرابيزة وضعت أمام الفوتيل" (ص: 547). لا شكّ بأنّ النص السابق يثير الضحك بقدر ما يثير الإشمئزاز والبكاء، وهذه الحالة الجروتسكية¹ (Grotesque) تعزّز من الغيريّة ومن التشويه القائمين في المجتمع، هناك حالة من اختلاط المشاعر فلا يدري عندها القارئ أيضاً الضحك أم يبكي؟ هذا التخبط بين الضحك والبكاء انعكاس آخر على التخبط المهيمن على المجتمع (See: Kayser, 1963: 182-184). يلغي الحديث عن شخصية غامضة كشخصية السفاح أيّة إمكانية لوجود علاقات سويّة في المجتمع. السفاح شخصية مشوّهة غيريّة مرفوضة وخارجة عن الإجماع للمجتمع ولا وجود لها إلّا في ظلّ مجتمع يفرض ولو مسوغاً واحداً فقط من مسوغات وجودها.

¹ نقصد بالجروتسيك Grotesque هي الحالة التي تفرض ردود فعل مختلطة بين الضحك والبكاء، ويحتار القارئ في الحالة التي عليه أن يتبناها من هاتين الحالتين. هذا الاختلاط والاضطراب بين الضحك والبكاء يؤكّد سوداوية الواقع ويعزّز من فوضويته. لمزيد من التفاصيل حول هذه التقنية الأدبية وحضورها في النص الأدبي، انظر دراستنا: السخرية في الرواية اللبنانية. حيفا: مكتبة كلّ شيء، 2012، ص76-63.

يتضح من خلال الحديث عن الغيرية الكامنة في المستوى الاجتماعي أنّ رواية السؤال صوّرت واقعا حافلا بهذه العلاقات المشوّهة. كما تعزّز الرواية في هذا المستوى زعمنا السابق أنّ الواقع الغيريّ والمشوّه لا بدّ وأن يؤدي إلى علاقات لا تقلّ تشوّهاً وغيرية بل وتفوق الواقع في بعض الحالة كتأكيد آخر على العبثية التي يعيشها الواقع. كما برزت في هذا المستوى الشخصية الغيرية الأنثوية تحديداً كشخصية فاعلة وفعّالة تحوّل غيريّتها إلى طاقة إيجابية تساهم مساهمة جادة في التأثير على مجريات الواقع أو محاولة التأثير على أقلّ تقدير.

2.2 المستوى السياسي

نقصد بهذا المستوى المناخ السياسي العام في المجتمع وممارسة الشخصيات في ظلّ هذا المناخ. ومما لا شكّ فيه أنّ الحالة السياسية مهما كان شكلها وحدتها تلقي بظلالها على الأفراد فيتصرفون وفقاً لهذه الحالة أو وفقاً للمتغيرات السياسية في حال حدوثها. نرصد في هذا المستوى، كما أشرنا سابقاً، شخصيتي مصطفى وتفيدة وغيريّتهما في هذا المستوى. الحالة السياسية البارزة في النصّ وفي الواقع، بطبيعة الحال، هي مصر ما بعد ثورة 23 يوليو¹ 1952، هذه الثورة التي علقت عليها الكثير من الآمال في تحرير المجتمع والشعب بصفة عامة من ظلم الاستعمار والملكية وإعادة الحكم لأبناء الشعب المصري وحدهم. لا شكّ بأنّ الثورة حقّقت إنجازات خالدة، ولا تهدف هذه الدراسة للخوض في هذه المسألة

¹ هي الثورة التي عرفت باسم "ثورة الضباط الأحرار" وهو تنظيم ظهر في الجيش المصري بعد حرب عام 1948 بزعامة كلّ من: محمد نجيب وجمال عبدالناصر. نجحت الحركة في القيام بانقلاب مسلح أبيض لم ترق به دماء، ونجحت في السيطرة على الأمور والسيطرة على المرافق الحيوية في البلاد، والأهمّ إلغاء الحكم الملكي في مصر. تولى الرئاسة بعد الثورة اللواء محمد نجيب ثمّ خلفه الرئيس جمال عبد الناصر. نادى الثورة بمبادئ عدة أهمها: القضاء على الإقطاع والاستعمار وإقامة حياة ديمقراطية وعدالة اجتماعية.

بطبيعة الحال. ولكن عانت الثورة من بيروقراطية مقبته خببت آمال الكثيرين في الوقت نفسه (انظر: هيكل، 1987: 67-87)¹.

يؤمن مصطفى بالمذهب الشيوعي فكرا وممارسة وقد اعتقل جزاء ممارسته السياسية هذه ومنع من مزاولة العمل (مع الحفاظ على حقّه في حصوله على مرتبة نهاية كلّ شهر!) وكان مصطفى مقتنعا تماما بضرورة العدالة الاجتماعية التي تكفلها النظرة الاشتراكية: " من خلال هذا المفهوم للديمقراطية، بمعنى حقّ الطبقات الوطنية أن تعبر عن نفسها بحرية. هذا المفهوم للديمقراطية يعني أيضا إعطاء نصيب لكلّ الطبقات الوطنية في إدارة القطاع العام وفي اخذ نصيب منه يوازي جهوده" (ص: 746). يتضح تماما من خلال هذا النصّ أنّ وجود نقطة تقاطع بين الفكر الذي ينادي به مصطفى وبين الفكر الذي نادى الثورة، هو أمر ممكن للغاية. لكنّ الواقع مخالف ومفارق، فرغم وجود نقطة التقاطع الفكرية بين الطرفين إلاّ إنّ مصطفى كان معتقلا. تؤكّد تصورات مصطفى السياسية أنّ الفرق يتسع بين مبادئ الثورة وممارستها على أرض الواقع، فما الداعي إذن للحديث عن حقّ الشعب في التعبير عن نفسه وضرورة العدالة الاجتماعية إذا كان الشعب ينعم بهذه الحريات مسبقا! الواقع السياسي المفارق والمخالف للمتوقع أدّى إلى ممارسات غيرية ومشوّهة، يعتقل فيه من يردّد مبادئ الثورة وينعم فيه من يدوسها في الخفاء تحت شرعية الثورة. هذا الواقع المشوّه أدّى إلى ضبابية سياسية واضحة انعكست بدورها على الشخصيات وممارساتها. فإذا كان التقاطع بين مستويات الاعتراى والغيرية التي تعانها الشخصية أمرا لا يقبل الشكّ، فإنّ المستوى السياسي الضبابي لعب دورا هاما في إفراز ممارسات غيرية في مستويات أخرى. ألقت هذه الضبابية بظلالها على المستوى الاجتماعي

¹ تجدر الإشارة إلى أن كتاب محمد حسنين هيكل (لمصر لا لعبد الناصر) يحاول الكاتب فيه توضيح كلّ التهم التي وُجّهت لعبد الناصر. ليس الهدف من الكتاب الدفاع عن شخص عبد الناصر بقدر ما هو رغبة في توضيح الأمر على حقيقته للشعب المصري. ولكن يهتّمنا في هذه المسألة التجاوزات البيروقراطية التي حدثت فعلا في الممارسة السياسية الداخلية والتي تخالف بطبيعة الحال تطورات الثورة بصفة عامة.

وسيطرت حالة من القطيعة والشك، كما بيّن في المستوى السابق، الأمر الذي دفع البعض إلى الاعتقاد بوجوب الإصلاح ولكن وفقاً لرؤيته الخاصة، السفاح مثالا. ولا بدّ في هذا المقام من التأكيد على التشابك القائم بين المستويات جميعها وهو الأمر الذي يعزّز من الغريبة التي تعاني منها الشخصيات من ناحية، ويؤكد غيرة الواقع من ناحية أخرى.

لا تبدي الشخصيات المسحوقة ماديا واجتماعيا اهتمامات سياسية خاصة في الحالة الطبيعية، ولكن نلاحظ أنّ المسألة تختلف عندما يتمّ الحديث عن الشخصيات الغريبة الفاعلة في هذا النصّ بصفة عامة والأنثوية منها بصفة خاصة. تقرّ تفيده صراحة أنّها لا تفقه شيئا يُذكر في السياسية ومع ذلك تبدي استعدادها الكامل ورغبتها للمعرفة: "حين جلسا يشربا الشاي بعد العشاء قالت:

- "فهمني إيه هي الشيوعية؟"

- "الشيوعية؟"

- تساءل منزعجا. قالت

- "أيوه، كلمني عن الشيوعية."

قال لها إن شرح الشيوعية صعب. ولكن لماذا تريد أن تعرفها؟ كانت مندهشة وقالت بتحدٍ: "- علشان إنت شيوعي و.. وعلشان.. علشان أن عايزة ابقى شيوعية." انفلتت منه ضحكة دون أن يستطيع إيقافها. قالت:

- "بتضحك ليه؟ عايزة أنضم لحزب الشيوعيين."

قال لنفسه: "وأين هو يا تفيده؟"

قالت تفيده: إنكم تعلمون من أجل الغلبة والفقراء، أليس كذلك؟ وأنتم تريدون تأييدهم، إنهم كثيرون جدا، جدا، وإذا أيدوكم فسوف تكون قوتكم كبيرة. وأنتم، يستحيل عليكم أن تكسبوا تأييدهم إذا لم تشرحوها لهم.

قال إن ذلك صحيح. واكتشف مصطفى حقيقة لم ينتبه لها من قبل، وتلك أنّه لم يحاول أبدا أن يشرح فكرته التي ضحّى من أجلها بالكثير وما زال مستعدا لذلك لإنسان فقير أو غير

متعلم. كان طول عمره يحاور أناسا يعرفون النظرية الماركسية، بشكل أو بآخر، معرفة جيدة. كيف يبدأ" (ص: 692) يؤكّد هذا النصّ الطويل نسبيا أكثر من حقيقة واحدة تتعلق بالواقع السياسي الغيريّ. يقرّ النص السابق بما لا يقبل الشكّ دور الشخصية الأنثوية في التأثير والتغيير، وهذا ما يتوافق ويتلاءم تماما مع زعمنا السابق بدور الشخصية الغيريّة الأنثويّة في التأثير أو محاولة التأثير على أقلّ تقدير. تفيدة الشخصية الغيريّة الخارجة من أعماق الأحياء الشعبية البسيطة والمهمّشة تلعنها صراحة، ودون أن تشعر بشيء من المفارقة، أنّها ترغب في معرفة النظرية والماركسية كمقدّمة للانضمام للحزب، وهذا تأكيد آخر على رؤية الكاتب العامة التي ترى تؤمن بالقوى الكامنة في أبناء هذه الطبقة بصفة عامة والأنثوية منها بصفة خاصة. تفرض تفيدة في حديثها السابق مع مصطفى واقعا غريبا لا لبس فيه عندما تحاول أن ترسم الخطوط العريضة التي يجب أن يسير الحزب وفقها دون أن تعلم حتى هذه اللحظة ما هو مفهوم الاشتراكية. تُلقى هذه المهمة في الحالة الطبيعية على أعضاء الحزب عامة وعلى المخضرمين فيه خاصة لأنّ ذلك يتعلق بالممارسة على أرض الواقع لحزب يطمح في التغيير. لكن أن تنجح شخصية غيريّة كشخصية تفيدة في رسم هذه الخطوط العريضة الهامة فهو أمر ينافي المتوقع والسائد عادة، هذه مسألة تحتاج إلى منّ خبر العمل السياسي فهما وممارسة لا منّ يتوق لمعرفة مبادئ الحزب الأساسية أو خطوطه العريضة، وهذا ما يؤكّد أنّ المشهد السياسي مشهد ضبابي لا وضوح فيه ويلزم إعادة نظر وحسابات جدية في كثير من المواقف والتصريحات. كما يفرض النصّ السابق حقيقة أخرى تتعلق بدور الحزب الشيوعي في المشهد السياسي المصري العام، فهو حزب له الكثير من نقاط التقاطع مع مبادئ الثورة وفكرها لكنه مغيب تماما عن المشهد السياسي ويتعرض أعضاؤه للملاحقة والاعتقال. هذا الواقع السياسي الذي يغيب حزبا يمكن أن يكون شريكا طبيعيا في "الموازنة" السياسية بالملاحقة والاعتقال هو واقع غيريّ بكلّ المقاييس.

تكشف رغبة تفيده في تعلّم مبادئ النظرية الماركسية عن الذكاء الحادّ الذي تتمتع به هذه الشخصية الغريبة، فهي على يقين ومعرفة بأنّ التأثير أو محاولة التأثير أو مجرد الانخراط السياسي منوط بشرط قبلي هو الوعي السياسي والإدراك السياسي للمحيط الذي تعيشه الشخصية. لم يتوقف الأمر فقط عند رغبة تفيده في المعرفة إنّما تجاوز ذلك إلى المكسب السياسي الهامّ في تثقيف أبناء الطبقات الفقيرة والمسحوقة ثقيفاً سياسياً. سيؤدي هذا التثقيف برأيها إلى كسب تأييد هذه الطبقات التي يعول عليها كثيراً في النصّ بصفة عامة وهي حقيقة لم يلتفت إليها مصطفى نفسه من قبل. وتفرض تفيده بمنطقها البسيط الكبير معادلة في غاية الأهمية وتلك أنّ استراتيجية الحزب القائمة على دعم الفقراء والمسحوقين تأخذ بعداً أعمق وأنجع مع تأييد هذه الطبقة لهم والتأييد لا بدّ وأن يكون مصحوباً بقناعة فكرية كتلك التي تحاول تفيده الوصول إليها. نلاحظ أنّ هذا "السرّد" السياسي يدور في أروقة مهمّشة على أبعد الحدود، أروقة الأحياء الشعبية والمسحوقة، وهذا دليل كافٍ على عجز الممارسة السياسية في أماكن مغايرة (كالأحياء الراقية) الأمر الذي يستوجب الالتفات إلى هذه الطبقات بصفتها طبقات قادرة على التغيير والتأثير.

لم يكن اعتقال مصطفى في نهاية الرواية إلّا دليلاً آخر على عبثية الواقع السياسي القائم: " في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل دقّ جرس الباب بشدّة، وأخذت بعض الأرجل تدق الباب بعنف. قالت تفيده: - "إيه؟" قال لها مصطفى:

" أمسكي أعصابك. البوليس "

" عايزين إيه؟ "

قالت وهي تحاول أن تستيقظ. قال لها:

" جاين يعتقلوني "

نهض وفتح الباب لهم. كانوا كثيرين وملأوا الشقة، وكانت تفيده تقف بباب حجرة النوم. فتشوا البيت كلّه، ومصطفى وتفيده يجلسان في حجرة الصالون، التي يقف ببابها أجد

المخبرين. جمعوا كثيرا من الأوراق التي يعرف مصطفى أنه لا فائدة لهم منها، ثمّ طلب منه الضابط أن يرافقه.

"نصف ساعة وترجع"

نظر إلى تفيدة وقال:

"نص ساعة يعني سنة" (ص: 848-849)

هذا النصّ الذي ينهي الرواية يوحي بدائية ليست على مستوى النهاية إنّما بدائية تتعلق بحياة شخصية مصطفى في الرواية وترسّخ في الوقت ذاته الحالة السياسية الغيرية. يظهر مصطفى في هذه الرواية بعد خروجه من المعتقل وينتهي النصّ بعودته إليه، هذه الدائرية بين نقطة البداية والنهاية تشير في الفن الأدبي بصفة عامة إلى ديمومة الحالة الافتتاحية، وكأنتنا ندور في حلقة مفرغة ولا أمل في الخلاص من الواقع الراهن. اعتقال مصطفى مجدداً في نهاية النصّ تؤكدُ غيريّة المرجعي السياسي القائم واستمرارية نهجه الغيريّ، كما تكشف عن تعامل غيريّ تفرضه الممارسة السياسية الغيرية أصلاً، فمصطفى يعي تماماً أنّ غيابه مع المحققين لنصف ساعة كما يزعمون يعني غياباً لسنة كاملة. هذه الممارسة التعسفية يفرضها واقع مشوّه وضبابي لا محالة، عدا عن الطريقة التي يتم فيها الاعتقال، يأتون ليلاً عادة (فالليل ستار كما يقال) وبطريقة أقرب إلى الهمجية من أي شيء آخر. يعزّز يقين الشخصية بحتمية اعتقاله قبل حدوثه فعلاً من حضور هذا النهج السياسي الغيريّ. فمصطفى تيقن أنّ "الأرجل" التي تدق هي حتماً من المخابرات جاءت لاعتقال حتى قبل أن يفتح لهم الباب. إحساس الشخصية الغيرية بالواقع الغيريّ عالٍ جداً فحدسه لا يخونه بتاتا، أصبحت حالة الواقع الغيريّ جزءاً لا يتجزأ من شخصية المواطنين والأفراد، الأمر الذي يؤكّد مجدداً حضور الواقع الغيريّ والمشوّه حضوراً لا لبس فيه.

ساهم المستوى السياسي السابق في تعزيز المشهد الغيريّ الذي تعانیه الشخصيات في الواقع وأكّد على حقيقة التشابك والتعلق القائمة بين المستويات الغيرية جميعها التي تعيشها الشخصيات، فغياب المستوى الاجتماعي المنطقي والمقبول يفرض تعاملاً سياسياً

مختلفاً وغيرياً كما هو واضح في هذا المستوى. كما أبرز المستوى السياسي مجدداً حضور الشخصية الغيرية الأثنوية التي تسعى بكلّ رغبة وثقة للمعرفة والتأثير في هذا المستوى أيضاً كما هو الحال في المستوى السابق. "اقتحمت" تفيده عالم مصطفى السياسي وفتت انتباهه إلى أفكار تتعلق بالناحية العملية التطبيقية للحزب كان هو نفسه السياسي الفدّ غافلاً عنها، وهكذا يعزّز الكاتب غالب هلسا مجدداً دور المرأة الريادي في المستويين الاجتماعي والسياسي.

2.2. المستوى الجنسي

تحظى ظاهرة الجنس في الأدب باهتمام النقاد والباحثين، نظراً للعلاقة الحتمية بين الجنس والعلاقات الأخرى القائمة في المجتمع وعلى رأسها العلاقات الاجتماعية والسياسية في الأساس (See: Accad, 1990: 1-7). هذا التعالق بين الجنس وبين العلاقات الاجتماعية والسياسية يؤكّد زعمنا السابق حول تداخل المستويات والتشابك بينها من ناحية، كما يؤكّد غيرية الواقع على نحو ما سنرى لاحقاً. يهتم هذا المستوى برصد العلاقات الجنسية الحاضرة في النصّ شكلاً ونوعاً كمؤشر للحالة السائدة في الواقع. ونقصد بالجنس الغيريّ في هذه الحالة تلك العلاقات التي لا تنضوي تحت إطار شرعي ما، أو تلك العلاقات التي تقام رغم وجود مثل هذا الإطار الأمر الذي يعزّز من الغيرية في هذا المستوى. كما يهتم هذا المستوى في تسليط الضوء على "إدمان" هذه الممارسة الجنسية الغيرية كتعبير عن رفض الواقع المشوّه الذي تعيش الشخصيات وكصرخة منها في إعادة النظر في أعراف المجتمع وتقاليدّه. يكشف الجنس الغيريّ حالة القطيعة السائدة بين أفراد المجتمع خاصة على مستوى العلاقات الشرعية، فالقطيعة الاجتماعية بين الزوج وزوجته تدفع أحدهما لممارسة جنسية غيرية نظراً لتعدّد العلاقة بمستواه الطبيعي في الإطار الطبيعي (الزواج) فتعيش الشخصية غيرية مزدوجة فهي عاجزة عن التواصل (جنسياً) مع طرفها الآخر الشرعي وبالمقابل تقيم علاقات غير شرعية تنافي الإجماع العام.

ارتبط الجنس في رواية السؤال بمعظم الشخصيات الناشطة فيها الأمر الذي يؤكّد حضور المشهد الجنسي في الواقع وبقوة. سيدة الحي الرابي التي قتلت بصورة بشعة على يد "السفاح" في بداية النصّ كانت لها ممارسات جنسيّة غيريّة: " ... أنّه قد تبين أنّ للقتيلة زوجا افترق عنها منذ أربع سنين... ونقلت بعض الصحف عن بعض جيران القتيلة أنّها كانت تقيم سهرات صاخبة، وأنّها كانت تتحاشى أن تقيم علاقة مع سكان العمارة" (ص: 506) يؤكّد هذا النص الافتراض السابق بوجود علاقة حتمية بين المستويين السياسي والاجتماعي وبين المستوى الجنسي، أدّت القطيعة الاجتماعية بين الزوج وزوجته في النصّ السابق إلى ممارسة اجتماعية غيريّة (إقامة السهرات السابقة) التي تؤدي بدورها إلى ممارسة جنسية غيريّة كذلك. ما يؤكّد غيريّة هذه العلاقات حرص الشخصية على قطع علاقاتها مع الجيران كمقدمة تتيح لها أن تمارس رغباتها بحريّة تامّة فيما بعد. يأتي "دخول" السفاح على هذا المشهد معزّزا للحالة الضبابية والانفلات في الواقع، فإذا كان هناك من سيحاسب الأفراد على ممارستهم الجنسية الغيريّة أصلا فحتما لن يكون السفاح، فتدخله بهذا الشكل السافر والمشوّه مؤشر على واقع يعيش حالة من الانفلات وعدم الانضباط. العلاقة التي جمعت بين عبدالعليم وصديقتة منى لم تخل من ممارسة جنسية غيريّة، تكمن غيريّة هذه العلاقة في حدوثها دون إطار شرعيّ يعرّفها ويبيحها: "ربما تكون قد غفت، لم تكن متأكّدة، ولكن باب حجرة نوم عبدالعليم انفتح فانتفضت منتظرة أن تراه يخرج إلها. ولكن الذي خرج كان فتاة ترتدي قميص نوم وروبا حريميا" (ص: 525). لم يتوقف الأمر عند ممارسة العلاقة الجنسية الغيريّة فحسب بل تجاوز ذلك إلى غيريّة أخرى تتمثّل في اعتبار هذه الممارسة طبيعية إلى أبعد الحدود وكما تمارس يوميات الحياة العادية والطبيعية، فمضى تتصرف كأنّها زوجة لعبدالعليم لا صديقتة أو عشيقته¹ تقيم عنده

¹ نقول صديقتة أو عشيقته رغم تصريح منى أمام زكية الخادمة بأنّها خطيبته، نظرا لتصريح آخر لوالدتها والتي نفت فيه أيّ علاقة لمى بعبد العليم بعد العثور على جثة عبدالعليم وجثة ابنتها لاحقا: " وقد نفت

وترتدي الملابس الخاصة بالنوم كتأكيد على طبيعيتها الحالة. الواقع أفرز حالة من الشكّ وعدم اليقين على المستوى السياسي، وينعكس ذلك بإفرازه لفوارق طبقية واضحة (البرجوازية والطبقات المسحوقة) رغم ما تنادي به الثورة بحتمية العدالة الاجتماعية، مما عزّز من الشكّ وعدم الثقة في نفوس الشخصيات إزاء الجهات المسؤولة وهو الأمر الذي أدّى بدوره إلى ممارسة جنسية غيرية كردة فعل لهذا الواقع المشوّه. فإذا كان الواقع (السياسي والاجتماعي) لا يعرف الوضوح واليقين، فكيف يمكن للشخصيات أن تتصرف وأن ترتبط بعلاقات تقوم على يقين تامّ؟

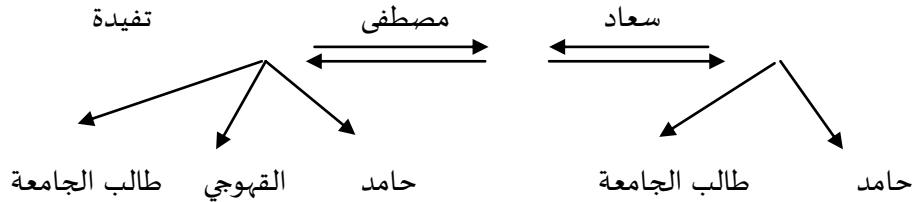
تفرّعت علاقات مصطفى الجنسية في مستويين اثنين هما: سعاد وتفيدة. تفرض هوية الطرفين السابقين غيرية معينة لأنّهما يرتبطان بعلاقة قرابة ودمّ (تفيدة خالة سعاد) فمصطفى يجمع بين امرأتين تربطهما هذه الصلة القريبة جداً، وهذا أمر يسوّغه واقع مشوّه. زد على ذلك أنّ كلا العلاقتين تمّت في إطار غير شرعي وهو الأمر الذي لم يكن موضوعاً للنقاش مرة لا من طرف مصطفى ولا من طرف سعاد أو تفيدة، فهذه الطبيعية في التعامل مع الأمور الغيرية، والتي أشرنا إليها سابقاً، ترسخ الغيرية أكثر فأكثر وكأنّ الواقع لا يحتاج لمثل هذه العلاقات المشروعة الملزمة إذا كان نقيضها ميسراً ومتاحاً. تعطي العلاقة القائمة بين مصطفى وسعاد انطباعاً غيرياً يوحي بأنّ "الحياة" بينهما لا معنى لها أو لا وجود لها خارج الإطار الجنسي (ص: 507) وفي موضوع آخر: " وضعت سعاد رأسها على كتفه وقالت إنّها تحبّ هذا المكان وتحبه هو. قبلها وداعها فأخذت تتنّاب. قال لها إن بإمكانها أن تمضي النهار معه والليل أيضاً وأن خالتها لن تطلق عليها. تاهت عينها وقالت: -"مش حا اضايقك؟"

قال لها بالعكس إنّهُ سوف يسعد بذلك. فتتأبّت وقالت إنّها ستنام قليلاً. وغفت ورأسها على كتفه. وأحسنّ هو بعبء الورطة التي أوقع نفسه فيها: إنّ عليه أن يسلي امرأة لأربع

أما أن يكون من يسى عبد العليم هو خطيبتها أو أن لها به صلة من أي نوع" (ص: 566). والأرجح أن كلمة الخطيبة تستخدم "للرأي العام" أو باعتبار ما سيكون اعتقاداً على أقل تقدير.

وعشرين ساعة متصلة. لن يبقى الكثير أمامه لها إذا اكتفى منها جسدياً" (ص: 508) تؤكد الورطة التي يتحدث عنها في نهاية النصّ الثاني أنّ الجنس بات وعاء مؤقتاً لتفريغ الكبت والضيق اللذين يفرضهما الواقع، فمصطفى لا يملك القدرة النفسية على المكوث مع سعاد عندما يفرغ منها وطره. يعمّق عجز مصطفى في التواصل اجتماعياً مع امرأة دون أن يكون الجنس هو الذي يجمعهما في الحقيقة من القطيعة الاجتماعية التي أشرنا إليها سابقاً. وهكذا يلقي المستوى الاجتماعي مرة أخرى بظلاله على المستوى الجنسي، القطيعة الاجتماعية تفرض علاقة جنسية غيريّة لا تتعدى حدود الرغبة كما يعترف مصطفى لنفسه بشكل صريح في هذا لمرحلة على أقلّ تقدير.

تنعكس غيرية الحالة الجنسية بشكل أوضح في هذا النصّ عند الحديث عن شخصيتي: سعاد وتفيدة. لم تخلُ أيّ علاقة قامت بها سعاد من غيريّة على المستوى الجنسي لاعتبارات كثيرة أهمها أنّها كانت تقوم في إطار غير شرعي من ناحية، وكانت تشهد "تنقلات" كثيرة. عاشت سعاد تجربتها الجنسية في ثلاثة محاور: حامد، طالب الجامعة ومصطفى، كما هو مبين في الرسم التالي مع الإشارة إلى علاقات كلّ من مصطفى وتفيدة كذلك:



رسم 1: شبكة العلاقات الجنسية

ما يعزّز الغيرية في هذا المستوى عند سعاد وتفيدة بل ويرسخها كذلك نقاط التقاطع التي كانت تجمع ما بين سعاد وخالتها تفيدة في العلاقات: "قالت له: تصوّر، أنّه حدث مرة، بل أكثر من مرة أنّها هي وخالتها أحبّتا الشخص نفسه. هل يتصور هذا؟" (ص: 636) يحتوي هذا النصّ على اعتراف صريح من سعاد لا يقبل الشكّ أنّ التقاطع في علاقتهما الجنسية تكرر أكثر من مرة، الأمر الذي يعيدنا مرة أخرى إلى الواقع الغيريّ والمشوّه الذي يتيح مثل

هذه التصرفات الغريبة. فرضت الغريبة الاجتماعية بين وبين خالتها (بفعل الواقع) تصرفات جنسية لا تقلّ غريبة. بدأت "المحطة الأولى"¹ عند سعاد في "مشوارها" الجنسي مع حامد عشيق خالتها (ص: 639-640) يجمع النصّ المشار إليه بداخله جوانب عديدة للغريبة الجنسيّة. اجتماع سعاد وخالتها في نفس العلاقة أمر غريبٍ بكلّ المقاييس، الحواجز الاجتماعية التي من شأن أن تتيح اجتماعاً كهذا لم تعد قائمة أصل، فجاءت التصرفات غريبة بنفس الدرجة. تبدو هذه العلاقة بين سعاد وحامد علاقة "غير متكافئة" نظراً لفارق السن بينهما، سعاد تقيم علاقة مع رجل يكبرها سنوات كثيرة وليس هذا فحسب بل تصوّر على هذه "المغامرة" المؤلمة الفظيعة لئلا يعتبرها طفلة لا تملك تجربة في هذا الجانب. إذا كانت العلاقة في طبيعتها مغرقة في الغريبة فلماذا لا تكون الاعتبارات والمسوّغات لهذه العلاقة أشدّ غريبة؟ القطيعة الاجتماعية التي مرّت بها سعاد² ألزمت حالة جنسية عملية غريبة إلى أبعد الحدود. المحطة الثانية كانت مع طلاب الجامعة حيث كانت تعمل سعاد: "ثاني يوم رحلت الشغل. كانوا ثلاثة طلبة من لبنان. ذهب اثنان منهم إلى الجامعة، وبقي واحد. كان صغيراً، ويحبني ولكنه خجول.

- "اغتصبته؟"

- "بالضبط" (ص: 644)

اجتازت سعاد بذلك كلّ الحدود، فلا مشكلة لديها أن تلعب هي دور المبادر للعلاقة الجنسية بل وهي التي تلزم الطرف الآخر (الرجل) على إقامة العلاقة معها وكأنها تفتصبه تماماً. يلغي الانفلات الاجتماعي الذي تعيشه سعاد كلّ الحواجز والأعراف، الشخصية لا

¹ نشير في هذه المرحلة إلى المحطتين: الأولى والثانية دون الثالثة لأننا أشرنا إليها عندما تطرقنا للمستوى الجنسي الغريب عند مصطفى.

² عاشت سعاد قطيعة على المستوى الاجتماعي في بيتها. والدها توفي وتزوّجت أمها من آخر، ولمّا كنت العلاقة بينها وبين زوج أمها لا تطاق فضلت الأم التخلي عن سعاد وإرسالها لخالتها تفيدة على أن "تضحي" بزوجها الجديد! (ص: 636)

تنتظر من "الرجل" أن يلهث وراءها أو أن يبذل مجهودا ليفوز بها فهي تختصر هذه المسافات وتوفّر هذا المجهود لتقوم هي بهذه المراحل دفعة واحدة دون مقدمات. من الواضح أنّ الموازين تُقلّب في هذا الواقع الغيريّ وتطغى عليه المفارقة التي تخلقها العلاقات الغيرية التي تسوده. الأنثى المشتهاة في الظروف الطبيعية والتي يُلهث وراءها تغدو مشتهية وتلهث وراء الرجل! ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ سعاد كانت على استعداد لما هو أفضع من ذلك (ص: 645) لا تقبل سعاد بالرجل "المتّمع" وعاقبا له تغازل زميله على مرأى منه ومسمع، وهذا شاهد آخر على "الانقلاب" الذي يشهده الواقع على مستوى التقاليد المتبعة عادة. لا يمكن لنا أن نتوقع غير الحالة الجنسية الغيرية ما دام الواقع متقلّبا بهذا الشكل المتطرف والهمجيّ.

لم تكن العلاقات الجنسية التي قامت بها تفيده بأفضل حال من تلك التي عاشتها سعاد، بل كانت علاقات تفيده أجراً وأكثر غيريّة. تفرّعت شبكة العلاقات الجنسية عند تفيده في أربعة محاور: حامد، صاحب المقهى (القهوجي) طلبة الجامعة ومصطفى. نقول إنّ علاقة تفيده الجنسية تفوق علاقات سعاد غيريّة لأنّ علاقاتها كانت أوسع وتمّت جميعها وهي مرتبطة بعقد زواج شرعي. وفي هذه الحالة كانت تفيده تتخذ من هؤلاء عشاقا! كان استثنائنا محور الزوج (زوج تفيده) من محاور علاقاتها الجنسية مقصودا لأنّه لم يكن قائما أصلا فقد انعدمت العلاقة الاجتماعية بينهما قبل العلاقة الجنسية. إنّ تأثير المستوى الاجتماعي على الجنسي عميق جدا، وقد أدّت القطيعة الاجتماعية بين خالتها وزوجها إلى تصرفات غيريّة جنسية من جانب الزوجة، لا تستحق العلاقة بينها وبين زوجها لقب العلاقة الزوجية وذلك لانعدام كلّ مقومات هذه العلاقة من مسئولية واهتمام الواحد مهما بالآخر وحتى العلاقة العاطفية/ الجنسية بينهما ما كانت تبدأ حتى تنهي! الأمر الذي دفع بتفيده لأن تبحث عن هذه "المقومات" في أطر أخرى. فالعلاقة التي تبني في أساسها على غيريّة وقطيعة لا بدّ وأن تفضي في مرحلة معينة إلى نتائج غيريّة. ليس من الغريب في ظلّ هذه الظروف أن تجد تفيده ضالتها الجنسية عند حامد وأن تبقى بصحبته لأيام

متواصلة: "أما خالتها فكان يمضي معها أياماً عدّة" (ص 650). وفي موضع آخر: "كنت بتحي حامد؟ هزّت رأسها إيجابياً" (684) عندما تتوفر العلاقة الاجتماعية المقبولة والتواصل بين الطرفين يطول الأمد بينهما والعكس صحيح. ما يعزّز الغريبة في هذا المستوى هي مسألة اعتبار هذه الأمور في حكم الواجب الذي لا بدّ منه! سعاد في نصّ سابق تؤكّد تماماً بأنّ "العشيق" لخالتها أمر واجب نظراً للظروف المأساوية التي تمرّ بها مع زوجها، ولهذا الأمر علاقة مباشرة مع الواقع الذي يتيح أموراً غريبة تغدو في ظلّ الواقع المشوّه ضرورة لا حاجة، ما يؤكّد غريبة العلاقات الجنسية انعدام الجانب الحسيّ أو العاطفيّ في العلاقة فالهدف جنسيّ محض، بمعنى إشباع الرغبة الجنسية لا أكثر وهذا ما تؤكّده "منهجية" صاحب المقبي في تعامله الجنسي مع تفيده، وهو الأمر الذي يفسّر رفضها للزواج من (القهوجي) ومن حامد رغم حبّها لهما، وقبولها بالزواج من مصطفى في نهاية المطاف. تأتي علاقة تفيده مع طلاب الجامعة، وفي هذا المحور تتقاطع تفيده وسعاد كما هو الحال في محوري مصطفى وحامد، بتأثير الواقع الذي أباح "الانقلاب" الاجتماعي الذي تحدثنا عنه في حديثنا عن سعاد في هذا المستوى. لا تتقاطع سعاد وتفيده في المحاور فقط بل في النهج كذلك، فسعاد قد "اغتصبت" طالبا من طلاب الجامعة حيث كانت تعمل وكذلك خالتها: "فجاء محمد وهو الطالب الذي أحبته خالتي... المهم أنه جاء البيت ولم تكن هي موجودة فاستقبلته خالتها... وبعدين خالتك اغتصبت..". (ص: 655). تكرار الظاهرة على مستوى النص يعطيها حضوراً أكبر في الواقع، بمعنى أنّ حضورها المتكرر في الواقع ألزم "التصوير الأدبي" لها في النصّ. نلاحظ أنّ الحالة الجنسية عند تفيده تتغير كما وكيفا عندما تنتقل إلى المحور الرابع وهو محور مصطفى، فلم تعد العلاقات تتكرر بهذه الوتيرة السريعة ولم تعد تنسم بهذه "الإباحية" لأنّ تفيده وجدت من يفهمها ويقدرها ويحترمها كما كانت تتميّ دائماً.

يشهد المستوى الجنسي، كما هو حال المستويين السابقين، على غريبة الواقع وتشويهه من ناحية وعلى غريبة الشخصيات من ناحية ثانية، وقد بيّنا وبصورة واضحة في هذا

المستوى تأثير المستويين: السياسي والاجتماعي تحديدا على المستوى الجنسي مؤكداً على التشابك والتعلق بين المستويات الثلاثة من مستويات غيرية الشخصية. "الحراك" الجنسي الغيري مؤشر بارز لحراك اجتماعي غيري وسياسي كذلك، باعتبار أن الحالات السياسية والاجتماعية تترى الظروف اللازمة في هذه الحالة لولادة هذه المستويات السياسية الغيرية وبالتالي صياغة الشخصيات الغيرية. كما أكد هذا المستوى على الحضور العنصر الأنثوي الغيري، على نحو ما رأينا في الصفحات السابقة، مبيّنا التحوّل الجذري الذي تقوده الشخصية الغيرية الأنثوية من خلال المستوى الجنسي كذلك، فعلاقة الشخصيات الأنثوية الغيرية قادت في بعض الحالات إلى تغييرات جذرية عند بعض الشخصيات (تأثير سعاد وتفيدة تحديدا على حياة مصطفى).

التلخيص

نخلص إلى القول إنّ رواية السؤال لغالب هلسا صوّرت الشخصيات الغيرية في مستويات مختلفة تصويراً عميقاً وشاملاً. وبيننا أنّ المستويات الثلاثة من مستويات غيرية الشخصية (الاجتماعي، السياسي والجنسي) شهدت حالة من التشابك والتقاطع فيما بينها، فقد أكدنا في كلّ مستوى حضور المستويين الآخرين كمسببين أساسيين للتصرفات الغيرية. لم يخلُ مستوى من هذه المستويات الثلاثة من التأكيد على المعادلة الهامة التي تقول: إنّ الواقع الغيري والمشوّه لا بدّ وأن يقود بالضرورة إلى علاقات اجتماعية وسياسية غيرية ومشوّهة وهذه العلاقات قادت بدورها إلى تصرفات جنسية غيرية رسّخت الغيرية القائمة في الواقع. وهكذا تغدو الشخصيات الغيرية وليدة هذا الواقع الغيري والمشوّه. لم يكن اختيارنا لمستويات الغيرية المذكورة أعلاه اعتباطياً بأي حال من الأحوال، إنّما الواقع (المصري بعد ثورة 23 يوليو) هو الذي فرض مثل هذا الاختيار لأنّها كانت المستويات الأكثر قدرة على رصد الواقع بتحوّلاته المشوّه والغيرية.

اهتمّت هذه الدراسة كذلك برصد الشخصية الغيرية الأنثوية بصفة خاصة وهو الأمر الذي يستحق البحث والدراسة. نجح غالب هلسا في رصده للشخصية الغيرية الأنثوية في

تغيير الصورة التقليدية للشخصية الغريبة، تلك الصورة التي تطفئ عليها حالات التردّي والقهر. ظهرت الشخصية الغريبة الأنثوية عند هلسا قادرة على التأثير أو محاولة التأثير على أقلّ تقدير، فنقاط التحوّل الحقيقية التي شهدتها الشخصيات في النصّ ومصطفى على وجه التحديد كانت تقف وراءها امرأة. سعاد وتفيدة استطاعتا رغم غيبيتهما في إفراز نقاط تحوّل جدية في حياة مصطفى. أعادت سعاد له إحساسه بالرجولة، المفقود بتأثير الواقع، وهو الأمر الذي مهّد الطريق أمام تفيدة لتعيد لحياته معنى في مستوياتها المختلفة وخاصة الاجتماعية والسياسية والجنسية. لا شكّ بأنّ صورة الشخصية الغريبة القادرة مسألة تتوافق كلياً مع أيّدولوجية الكاتب غالب هلسا، الذي كان يؤمن أنّ عملية تحرّر المجتمع يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تحرّر المرأة في المجتمع، اهتمّ هلسا برصد الشخصيات الغريبة الأنثوية الخارجة من أعماق الأحياء الشعبية البسيطة كإشارة إلى شكل التغيير الذي ينبغي أن يكون في الواقع. تنعكس قوّة هذه الرواية في قدرتها على رصد الواقع المشوّه بأدق تفاصيله من ناحية، وقراءتها للواقع قراءة متأنية ثاقبة وموضوعية.

ببليوغرافيا

المصادر

1. هلسا، غالب. الأعمال الروائية الكاملة. عمّان: دار أزمّنة، 2003.

المراجع

1. الحمازنة، صالح. غالب هلسا الأديب الرافض. عمّان: دار أزمّنة، 2011.
2. هبيي، فياض. الشخصيات المهمّشة في روايات إلياس خوري. عمّان: دار أزمّنة، 2006.
3. هبيي، فياض. السخرية في الرواية اللبنايية (1975-1990). حيفا: مكتبة كلّ شيء، 2012.
4. هيكل، محمّد حسنين. لمصر لا لعبد الناصر. القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1987.
5. Accad, Evelyne. **Sexuality and War**. New York: New York University Press, 1990.
6. Blauner, Robert. **Alienation and Freedom**. Chicago: The University Of the Chicago Press, 1967.
7. Kayser, Wolfgang. **The Grottesque in the Art and Literature**. New York; Indiana University Press, 1963.